صورة الجزائر في الرواية الفرنسية

أ.د. الطيب بودربالة

جامعة باتنة

الملخص

يسعى هذا البحث إلى دراسة تجليات صورة الجزائر في الرواية الفرنسية الحديثة وتبيان ا لمنطلقات الأيديولوجية والثقافية والفنية التي أسهمت بطرق شتى في تشكيل المتخيل الفرنسي في هذا المجال. كما تهدف هذه المقاربة إلى الكشف عن الآليات والا ستراتيجيات المعتمدة في الكتابة لتشكيل واقع جزائري مأزوم وتحقيق القتل الرمزي للآخر في ظل عنف التاريخ وصراع الحضارات. ويركز التحليل الذي تبنى منطلقات الصورولوجيا على دور الرواية الاستعمارية في الترويج للطوباوية الجديدة من خلال تفكيك بعض التعبيرات والرؤى والأساليب والأخيلة والأساطير التي روج لها في الجزائر على نطاق واسع.

Résumé

Cette étude tente d'examiner les différentes représentations de l'Algérie à travers le roman français moderne pour en découvrir les visées idéologiques, culturelles et esthétiques qui ont contribuer, de différentes manières, à dessiner les contours de l'imaginaire romanesque français dans ce domaine. Il s'agit aussi de découvrir les dispositifs scripturaires et les stratégies mis en œuvre dans les textes pour figurer une réalité algérienne dramatique et accomplir une sorte de mise à mort symbolique de l'Autre dans un contexte dominé par la violence de l'Histoire et l'affrontement des civilisations. Cette analyse se base essentiellement sur les ressources méthodologiques fournies par l'imagologie pour élucider le rôle accompli par le roman colonial dans la diffusion des catégories intellectuelles de légitimation et dans l'élaboration d'une nouvelle utopie. Elle vise également à déconstruire tout un ensemble d'expressions, de visions du monde , de styles, d'imageries et de mythes consacrés par une pratique d'écriture coloniale.

بدأ اتصال الفرنسيين بالشرق مع عصر التنوير،حيث عمد الأدباء والفنانون والفلاسفة والمفكرون إلى تغذية المتخيل الفرنسي بعجائب الشرق الساحر وغرائبه وخوارقه الذي تبهر العقول وتأسر الألباب. إنه شرق ألف ليلة وليلة والجواري والغلمان والحريم والأميرات الساحرات ومدن العجائب والأساطير والخرافات.

في القرن التاسع عشر، ومع بداية التوسع الاستعماري، أخذ هذا الشرق البعيد يقترب تدريجيا بعد ترويضه، ليتحول إلى واقع هاجسي وإلى مكون جوهري من مكونات الهوية الغربية، باعتبار أن الآخر المختلف يؤسس للوعي بالذات وبالعالم.

احتلت فرنسا الجزائر سنة 1830، بعد انتصارها على قوة الأتراك العسكرية، لكنها، وفي سعيها للسيطرة على مختلف المناطق، لقيت مقاومة شرسة ومستميتة. وقد خلد التاريخ ملحمة الأمير عبد القادر مؤسس الدولة الجزائرية الحديثة وصانع مجد المقاومة ورمز من رموز الجهاد في التاريخ الإسلامي.

إن موازين القوى السياسية والعسكرية والثقافية والحضارية لم تكن وقتها في صالح الأمير الذي أدرك ببصيرته وبوعيه الثاقب وبحسه الحضاري أن العالم مقبل على تحولات خطيرة، ليست في صالح العرب والمسلمين. فشلت الجزائر في التصدي للغزاة، ولكن جذوة المقاومة بقيت طيلة العهد الاستعماري مشتعلة ومتأججة في شكل ثورات وانتفاضات، تارة متزامنة وطورا متعاقبة، بفضل العمق الثقافي والحس الحضاري لدى الجزائريين.

ارتبطت صورة الجزائري في المتخيل الروائي الفرنسي بالوجود الاستعماري الذي امتد من 1830 إلى 1962. لجأ هذا الاستعمار إلى عزل الجزائر عن محيطها الثقافي والحضاري وإلحاقها مباشرة بالدولة المحتلة واعتبارها مقاطعة فرنسية، مطبقا سياسة الاستيطان على نطاق واسع. وبخلاف أشكال الاستعمار الأخرى، مثل الحماية الوصاية والانتداب، فإن الاستعمار الاستيطاني يعد أخطر أنواع الاستعمار، لأنه يقوم على اغتصاب الأرض والإبادة والقتل والاستعباد.

احتل الأجنبي الأرض، ولكنه لم يستطع السيطرة على العقول والنفوس والمتخيل، ذلك أن المقاومة تمكنت من الانتقال إلى الأبنية الأنتروبولوجية العميقة للإنسان الجزائري. إنها غَريزة البقاء التي غذت المقاومة الجديدة التي استعمل فيها الجزائريون سلاح الدمار الشامل: الخرافة، الأسطورة، الدين، الغيبيات، المتخيل.. إلخ. في ظلمات ليل الاستعمار، تمكن الشعب الجزائري من حماية نفسه وضمان تماسكه ووحدته، متجنبا التلاشي والذوبان في كيان الآخر.

سعت فرنسا إلى بسط نفوذها على كل المناطق، مستعينة في ذلك بمختلف استراتيجيات الهيمنة التي تضمن التحكم المعرفي والتطويق الفكري.لكن إن إرادة القوة لا تكفي لتحقيق السيطرة الكلية، لأن السلطان يرتبط دائما بالعرفان. لذلك تمت الاستعانة ببعض الحقول المعرفية ذات الطابع الاستراتيجي، مثل الأنثروبولوجيا

والإثنولوجيا والإثنوغرافيا وعلم اللهجات وفقه اللغة، لمعرفة ثقافة الخصم والسيطرة عليه وإخضاعه بصفة نهائية.

ومن هذا المنطلق، فإن الصورة المقدمة عن الجزائري خلال المراحل الأولى من الاستعمار، هي صورة تعكس قبل كل شيء استيهامات المحتل وإرادة القوة ونزعة القتل وروح الإبادة. عمد المستعمر إلى رسم صورة فولكلورية ومقيتة عن الجزائري بصفته إنسانا بدائيا متوحشا تحكمه الغرائز والنزوات والذهنية الأسطورية. إنها صورة تعكس قبل كل شيء رغبات المحتل الدفينة ومكبوتاته العنصرية.

سيطر المنظور الإثنوغْرافي على هذه الكتابات التي احتفت بالمظاهر الخارجية للثقافة: المسكن، الملبس، الأكل، الشرب، الرقص، الفولكلور، الحرف والأعمال اليومية، وكل ما يتصل بالعادات والتقاليد والطقوس المختلفة. حنطت هذه النظرة الإنسان الجزائري وأفرغته من ديناميكيته وفاعليته وإنسانيته وكينونته التاريخية، بحيث لا نلمس فرقا بينه وبين الأحجار والأشجار والحيوانات. توحي هذه الصورة بأننا أمام جماعة بشرية بدائية معزولة في الزمان والمكان ومرشحة للانقراض لتدخل متحف التاريخ.

وقد أسهم الإنسان الجزائري –ربما لا شعوريا- في ترسيخ هذا الانطباع لدى الملاحظ الأجنبي، وذلك بالتستر والمراوغة، والاختفاء والإضمار، حرصا منه على المحافظة على جوهر الشخصية، بعيدا عن نظرة العدو القاتلة. واعتقد المحتل أن المجتمع الجزائري يعيش خارج التاريخ ومآله لا محالة الفناء والزوال على غرار الهنود الحمر في أمريكا الشمالية.

شكلت هذه الدراسات النواة الصلبة للصورة النمطية المعتمدة للجزائريين في فرنسا، والذين أطلقت عليهم تسمية "الأهالي" تحقيرا لهم. روّج لهذه الصورة على نطاق واسع في فرنسا وفي أوروبا. وكانت سببا في قدوم آلاف الأوروبيين إلى الجزائر التي أضحت "أرض الميعاد" وبوابة الشرق. كما تسللت هذه الصورة إلى المتخيل الاجتماعي الفرنسي وإلى الكتب المدرسية وإلى مكونات ما يُعرف اليوم بالرأي العام.

تزامنت هذه الكتابات الأنثروبولوجية مع قدوم بعض الأدباء والرسامين الرومانسيين إلى الجزائر هروبا من القمع البورجوازي، وبحثا عن منابع الإلهام الجديدة التي تغذي روح الإبداع وتفجر طاقات المتخيل وتؤسس لطوباوية جديدة.

انبهر الرومانسيون بالعوالم الجديدة التي تزخر بالتنوع والمناظر الخلابة والمفارقات العجيبة. انجذبوا إلى هذا السحر الشرقي الذي يحتضن مغامراتهم ويحقق أحلامهم ويحرر أخيلتهم ويفتح لهم آفاقا لا حصر لها. تغنى هؤلاء المبدعون بكل شيء

في الجزائر: الصحراء المترامية الأطراف، الواحات، الجبال، السهول، الشواطئ، الهضاب، الوديان، المناخ، التضاريس، الأصوات، الروائح، الألوان، الأشكال...إلخ. ورأى بعضهم في الإنسان الجزائري تجسيدا لأسطورة "الإنسان المتوحش الطيب" التي روّج لها جان جاك روسو. كما اعتقد بعض الاشتراكيين المثاليين أن أشكالا معينة من الحياة الاجتماعية والثقافية التقليدية تمثل نموذج المشاعية البدائية التي أشار إليها ماركس في كتاباته. شرع هؤلاء الرومانسيون يبحثون عن روحانية الشرق، وعن الحكمة الخالدة، وعن أسرار هذه العوالم السحرية، وعن أسرار الطبيعة والمرأة والإنسان، من خلال رؤى وأحلام وشطحات صوفية وتعبيرات رمزية، تتوق إلى ترجمة الحمولات الدلالية الغامضة والمعقدة.

كما فتن الرومانسيون بعراقة المدن مثل مدينة الجزائر التي استحوذت على قلوب المسافرين بقصورها وشرفاتها وفنها المعماري وأسواقها ونسائها وعبقريتها العمرانية. وتخيل هؤلاء أنفسهم يعيشون مغامرات ألف ليلة وليلة وأجواء الجواري والغلمان.

وما يلاحظ على هذه الكتابات هو إيغالها في الهروب من الواقع والجري وراء العجائبية والغرائبية. أما مشاكل الجزائريين وقضاياهم المصيرية فهي مغيبة، وتعد من المسكوت عنه، مما حمل بعض النقاد على القول بوجود تواطؤ مع الإدارة الاستعمارية. والحقيقة، أن موقف الرومانسيين من الواقع المعاش يتصف عموما بالسلبية، رغم أن الرومانسية كانت في بداياتها الأولى حاملة لمبادئ الثورة الفرنسية، ولمشروع تحرري إنساني، وجد تجسيده وترجمته عند كبار الرومانسيين التحرريين من أمثال بايرن وهوجو وجورج صاند، الذين وقفوا بشجاعة إلى جانب الضعفاء والبؤساء والمضطهدين دفاعا عن قيم الحرية والعدالة والإنسانية.

وكما أن لكل قاعدة استثناء، فقد حدث لدى بعض الرومانسيين، وهم قلة، وعي بضرورة محاورة المختلف وتحقيق التواصل مع هذه الإنسانية المعذبة لمعايشة أفراحها وأتراحها، آمالها وآلامها. نلحظ هذا التعاطف مع الجزائري في بعض رسومات الفنان دولاكروا، وكذلك في إبداعات ورسومات الرومانسي إيتيان ديني الذي اعتنق الإسلام وحول اسمه إلى نصر الدين ديني واندمج كلية في المجتمع الجزائري مفضلا البقاء في الجزائر حيث مات ودفن في مدينة بوسعادة.

غير أن السمة الغالبة لدى الرومانسيين في الجزائر هي اعتمادهم، قبل كل شيء، على الوصف عل حساب القص والسرد. لأن العبرة عندهم هي وصف البيئة والمحيط الطبيعي والعوالم الخارجية التي تترك انطباعات وتأثيرات في الوجدان والنفس والروح. وخير من يمثل هذه التيار الرومانسي في الجزائر، الأديب جوتييه والإخوة

جونكور وفائدو. كما برز من بين الرومانسيين روائي ورسام مشهور، أثرت أعماله الإبداعية في كل الذين جاؤوا من بعده، وهو فرمنتان، صاحب الرائعتين: صيف في الصحراء (1859)، وسنة في الساحل (1859).

مع الثلث الأخير من القرن التاسع عشر، بدأ المد الرومانسي في الانحصار مفسحا المجال لظهور روايات متشبعة بالروح الواقعية التي فرضت نفسها في فرنسا طيلة النصف الثاني من القرن التاسع عشر، والتي جسدها كل من بالزاك وفلوبير وستاندال وزولا.

تزامن وصول الجيل الثاني من الأدباء الفرنسيين إلى الجزائر، مع هيمنة التيار الواقعي على الحياة الأدبية في فرنسا، وأفول نجم الرومانسية. لذلك تحرر هذا الجيل من شطحات الرومانسية وأساطيرها ومعتقداتها.

لقد أخذ الواقع الجزائري يفرض نفسه شيئا فشيئا على الكتاب الفرنسيين. وقد كان لزيارة فلوبير للجزائر سنة 1868، تأثير كبير في توجيه الإبداعات وجهة جديدة، خاصة وأنه سبق وأن خلد عراقة الشرق في روايته سالامبو، التي استحضر فيها مجد قرطاج وتاريخها الحافل بالبطولات. إ ضافة إلى ذلك، فقد دون فلوبير ملاحظاته عن الجزائر في كتابه "ملاحظات" (1868)، مسجلا صور البؤس ومظاهر التعاسة والفقر التي يعيشها الجزائريون وهم يعانون ويلات الاستعمار الفرنسي. لقد كان فلوبير في مستوى رسالة الواقعية ومقاصدها النبيلة، حيث حرص على تعرية الواقع المأساوي، رغم المدة القصيرة التي قضاها في منطقة قسنطينة (بين أفريل وجوان 1868).

ومن الذين يمثلون الجيل الجديد، ألفوس دودي، الذي اشتهر برواياته التي تعد من روائع الأدب العالمي؛ مثل "رسائل من طاحونتي" و"الشيء الصغير". لكن حضور الجزائر تجلى بقوة في كتابه "تارتاران دوتاراسكون" الذي تجري أحداثه في إفريقيا (وهو الاسم الذي أطلقه الأوروبيون على الجزائر في القرن التاسع عشر). وقد عمد الكاتب إلى الإطاحة بالقيم الرومانسية و مقدساتها وأساطيرها التي روجت في الجزائر. كما تناول الموضوعات الاستشراقية بكثير من السخرية.وبفضل روحه النقدية اللاذعة تمكن من فضح المنطلقات والمرتكزات التي تقوم عليها الإيديولوجيا الاستعمارية.

قدم الأديب الفرنسي الذائع الصيت، موباصان، خلال هذه الفترة. وقد أمدته الجزائر بكل ما يحتاج إليه من موضوعات وجماليات وإلهامات. وقد اكتشف خلال رحلاته عبر مختلف المناطق الوجه البشع للاستعمار، مما عمق وعيه السياسي وقوى إيمانه بقضايا الحرية والعدل والمساواة. كتب سنة 1884 كتابه الذي نال شهرة عالمية "تحت الشمس" وفيه يتغنى بالصحراء التي أحبها حبا عظيما، والتي عاش فيها ما يشبه الولادة الثانية.

يمثـل الأديـب الفرنـسي أنـدري جيـد علامـة مـايزة فـي التـاريخ الأدبـي الفرنـسي الحـديث. تفتقت مواهبـه مع بـزوغ فجـر العـشرين حيث أعطى للإنـسانية روايتـه الخالـدة "الغذاء الأرضي" (1897) والتي تحصل بفضلها على جائزة نوبل للأدب.

عـاش جيـد سـنوات طويلـة فـي الجزائـر، وتنقـل بـين مختلـف مـدنها، واسـتهوته الصحراء بواحاتها وبرمالها وبإنسانيتها الفذة. والمتصفح لبعض رواياته، مثـل "اللاأخلاقـي" (1902) يكتشف عوالم جذابة لا تخطر ببال إنسان. لقـد سـما "جيـد" بـالواقع الجزائـري العادي إلى مستويات إنسانية وفنية عاليـة، جعلتـه يرقـى إلـى مستوى العالميـة. إن منظـور "جيد" الذي يستند إلى مرجعيات مسيحية وإنسانية، سمح لـه بـإدراك جوانيـة الجزائـري وحقيقـة الثوابـت الإنـسانية الخالـدة. اسـتطاع "جيـد" بعبقريتـه الفـذة أن يحقـق أسـطرة الواقع الجزائري ومدن الجنوب التي أدخلها بقوة إلى المتخيل الأدبي العالمي، مثل القنطرة وبسكرة وتوقرت وورقلة. لقد ارتبط "جيد" بالجزائر ارتباطا عضويا حميميا مكنـه مـن اكتـشاف ذاتـه والعـالم والآخـرين. كمـا أمدتـه الأرض الجديـدة بمعنـى الحيـاة ودلالتهـا وفلسفتها. وبفضل تجربته الجزائرية تمكن من الانفلات من القيـم البورجوازيـة الفرنسية و من الكبت الاجتماعي، ومن حضارة الزيف والاستهلاك والاغتراب.

تبنى "جيد" موقف المتعاطف مع الجزائـريين فـي كـل شـيء، بحيـث أضـفى علـى قيمهم الثقافية أصالة وعمقا وروحا عالميـة. ويتجلـى هـذا فـي تـصويره لحيـاتهم اليومية فـي غـدوهم ورواحهـم، فـي ريفهـم وفـي مـدنهم، فـي أسـواقهم وفـي طرقـاتهم. رسـم حيـاة الجزائريين في جزئياتها وتفاصيلها بعيدا عن جمود الإثنوغرافيا وعـن غلـو الرومانـسيين، بحيث لا يملـك القـارئ إلا الإعجـاب بهـذه الإنـسانية التـي تـصارع البـؤس وتقـاوم مظـاهر الظلـم والتـسلط. وهنـا يكمـن سـر سـمو إبـداعات هـذا الأديـب إلـى مراتـب الآثـار الأدبيـة العالمية الخالدة.

إلى جانب "جيد" تقف عبقرية أدبية أخرى لا تقل إشعاعية، وتتمثل فـي الروائـي "هنري مونترلان" الذي نبذ المجتمع الأوروبي وآثـر حيـاة المغـامرات والأسـفار، منغمـسا فـي أجواء الجزائر ومنتشيا بجاذبيـة الصحراء ومتغزلا بـ "وردة الصحراء" (1932)، ومـدافعا عـن قضايا الجزائريين وعن حقهم في الحياة والوجود.

مع نهاية القرن التاسع عشر وبزوغ فجر القرن العشرين، أخذ المـشهد الروائـي يتغيـر تـدريجيا فـي الجزائـر، نتيجـة التحـولات الـسياسية والثقافيـة التـي عرفتهـا المنطقـة. وهكـذا بـرز إلـى الوجـود مـا يُعـرف بالروايـة الاسـتعمارية، بعـد كتابـات الإثنـوغرافيين والرومانسيين والمتعاطفين مع الأهالي.

ويعد لويس برتراند مؤسس هذا التيار الذي سعى إلى تحقيق قطيعة مع الإبداعات السابقة. قدم هذا الأديب الفرنسي المنحدر من منطقة لوران المحاذية للحدود الألمانية، إلى الجزائر مع نهاية القرن، وتحديدا سنة 1891 ليدرس البلاغة في ثانويتها.

قدم وهو مشحون بمشاعر الرفض والكراهية للأوضاع السائدة في فرنسا والتي تمثل في رأيه نوعا من الانحطاط والانسداد في الآفاق المستقبلية. رفض ما كان يسود فرنسا من أخلاق وقيم ثقافية وسياسية وفنية، ورأى في الجزائر البديل الإيجابي الذي يحتضن الطوباوية الاستعمارية الجديدة التي سعى بقوة إلى بلورتها والترويج لها عبر كتاباته المختلفة.

أحس برتراند بأنه صاحب مشروع حضاري وصاحب رسالة إنسانية، لذلك لجأ إلى الوسائل الفنية والجمالية لتشكيل المتخيل الجديد. ولإضفاء الشرعية التاريخية والحضارية على المشروع الاستعماري استحضر إلى الأساطير المؤسسة. إذ وجد في الماضي الاستعماري الروماني مرتكزا لنظريته القائمة على الانتماء اللاتيني للجزائر،معتبرا الوجود العربي والتركي في الجزائر ظاهرة عرضية لم تؤثر على حقيقة الشخصية الجزائرية التي بقيت، حسب قوله، في جوهرها رومانية. وهو يرى أن البحر المتوسط بحر لاتيني يفصل بين فرنسا والجزائر كما يفصل نهر السين بين شقي مدينة باريس.

يرى برتراند أن فرنسا باحتلالها للجزائر لم تفعل سوى استرداد حقها المسلوب لأن الإمبراطورية الفرنسية هي الوريثة الشرعية للإمبراطورية الرومانية، حسب زعمه. واعتقد أن الأصول الرومانية ستمنح طاقة كبيرة ودفعا قويا لهذا الشعب الجديد المتعدد الأعراق والأجناس والثقافات والذي سينصهر حتما في بوتقة مشروع الإحياء والبعث الذي حاول الترويج له. وكانت لكتابات أستاذه "فلوبير" وخاصة رواية "صالامبو" تأثير كبير على استحضاره لرموز الماضي والأساطير المؤسسة. لقد ابتدع عالما خياليا يمجد القوة والفتوة والتحدي والصراع وروح المغامرة والاكتشاف. ورأى في شخصية المعمر البطل الحضاري الذي يقود الشعب الجديد إلى أرض الميعاد والخلاص. أما العربي، فهو هو الكائن الوحيد الذي يعكر صفو هذه الحياة وينغص الحلم الجديد حسب زعمه. لذلك رأى فيه العدو المناهض للحضارة والتقدم والطوباوية الجديدة. وحالته شبيهة إلى حد كبير بحالة الهنود الحمر في الولايات المتحدة، والذين تخلص منهم الرجل الأبيض عن طريق الإبادة. ورواياته في جوهرها لا تختلف كثيرا عن قصص الوسترن واحتلال الغرب الأمريكي.. ويمكن تلخيص هذه الرؤية الاستعمارية فيما يلي:

إن الاحتلال الفرنسي للجزائر حتمية تاريخية ومطلب تاريخي وضرورة حضارية تعيد الأمور إلى وضعها الحقيقي.

تعتبر أرض الجزائر البوتقة التي تنصهر فيها كل الأعراق والأجناس لإنجاز مشروع حضاري ينقذ فرنسا والعالم من الانحطاط.

البطل الحضاري هو المعمر الذي يشكل العمود الفقري لهذا الحلم.

يجب الاستعانة بالعنصر البربري للقضاء على "عصر الظلمات" المتمثل في الوجود العربي والوجود التركي.

هذه الموضوعات التي تؤجج الصراع وتمجد الصدام وتغذي صراع الحضارات، تستدعي بطبيعة الحال إستراتيجية في الكتابة تقوم على البلاغة والفصاحة والجزالة والتعبير المؤثر، وذلك بالرجوع إلى التراث البلاغي اللاتيني وإلى العبقرية الحجاجية الرومانية في هذا المجال.

اعتمد برتراند على أسلوب واقعي بعيد كل البعد عن الواقعية النقدية والواقعية الطبيعية، لأنه مرتبط أساسا بما يُعرف بـ "واقعية الأطروحة" التي تضحي بالجماليات والأشكال واللغة، بغية الترويج لمذاهب إيديولوجية معينة والتأثير على شرائح اجتماعية واسعة. وتتجلى آ راء الكاتب في كل كتاباته التي نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر:

دم الجناس (1899).

لاسينا (1901).

بيبات وبالتازار (1920).

مستثمرة السيدة بيتي جان (1912).

مدن الذهب (1921).

إضافة إلى الجنس الروائي، فقد لجأ الأديب إلى الترويج لآرائه السياسية والفنية عن طريق التصريحات والمقالات والمقدمات المبثوثة هنا وهناك.

وتعد كتابات براترند تحولا نوعيا في المتخيل الروائي الاستعماري، محققة قطيعة جذرية مع أدب السياح وأدب "البطاقة البريدية"وأدب الفولكلور.

مهد هذا الأدب لظهور جيل من الروائيين الفرنسيين الذين استقروا في الجزائر منذ مدة وآثروا البقاء فيها للإسهام في إنجاح المشروع الاستعماري على مستوى الشرعية الفنية والإيديولوجية. لم يكتف الاستعمار من طرد الجزائري من أرضه، بل لجأ أيضا إلى طرده من التسمية وحرمانه من الهوية الأصلية اللصيقة بالاسم. وهذا ما يفسر سطو أدباء هذا الجيل على مقدسات الجزائريين وتسمية تيارهم بتيار "الجزائريين" الذي يتأسس على أشلاء أبناء الوطن

في عز انتصارات المد الاستعماري، ظهر هذا التيار ليدعو إلى ابتداع أدب انفصالي "جنوبي" له مقومات وجمالياته ومرجعياته واستقلاليته، في مواجهة أدب الميتروبول والأدب القاري. وقد تمكن هذا التيار من الاندماج في الواقع الجزائري والتعبير عن المجتمع الكولونيالي الجديد الذي يسيطر على كل الفضاءات الثقافية والاقتصادية والسياسية.

ازدهرت هذه الحركة خلال الفترة الممتدة من الحرب العالمية الأولى إلى نهاية الثلاثينيات.ومن أهم ممثليه لويس براترن، ولويس لوكوك، وشارل هاجل، وألبرت تروفميوس. لكن زعيم هذا التيار بدون منارغ هو روبرت راندو، صاحب رواية "المعمرون".

ويلاحظ على هذه الروايات أنها تتصف بالضعف من ناحية الجماليات والتشكيل الفني والتقنيات. لكن أهميتها تكمن في واقعيتها وفي التزامها بالخط الإيديولوجي الاستعماري المهيمن على الساحة الجزائرية.

ويمكن أن نقدم الخصائص العامة لهذا التيار فيما يلي:

يعد هذا التيار بمثابة الناطق الرسمي للاستعمار في الجزائر، لذلك عمد إلى تعميق الإيديولوجيات وتوسيع دائرتها على نطاق واسع، لتمس مختلف الشرائح الاجتماعية. وقد سعى إلى تشكيل هذه القيم على مستوى المتخيل والتعبيرات الرمزية والقيم الفنية والحس الجمعي والذوق العام.

تزامنت هذه الروايات مع الغطرسة الاستعمارية ومع إيمان المستعمر الراسخ بأنه تحكم بصفة كلية ونهائية في المستعمرة. هذا الوهم شجع المستعمر على تنظيم مختلف التظاهرات والاحتفالات والمهرجانات لتخليد وإحياء "الملحمة الاستعمارية" بعد مرور ما يقرب من مئة سنة على احتلال الجزائر. وقد امتدت هذه الاحتفالات على مدى سنوات في فرنسا، وتوجت سنة 1930 بالاحتفال الكبير بمرور مئة سنة على الاحتلال. وتعكس هذه الروايات الدور البطولي للمعمر وإرادة الحياة وروح التضحية .

حققت هذه الروايات ما يعرف بالقتل الرمزي للآخر (الجزائري) وذلك بإتباع إستراتيجية محكمة في هذا المجال :

البطل الإيجابي هو البطل الحضاري، وغالبا ما يمثله المعمر الذي اغتصب الأرض وواجه قساوة الطبيعة وأعداء التقدم والحضارة.

البطل السلبي هو الجزائري الذي أخرج من دائرة الفعالية التاريخية وديناميكية الحياة ليصبح مجرد ديكور شبيه بالأشجار والحجار والحيوانات.

تقوم معمارية السرد على منع الجزائري من أن يكون ساردا أو مسرودا له أو موضوع سرد. كما أقصي من الحوار والتلفظ ومكونات الحبكة. وإذا حدث أن تكلم، فأقواله كلها تصب في قوالب وأنماط جاهزة.

الضمائر المستعملة للتعبير عن الجزائري هي ضمائر الغائب: هو، هي، هم، هن،للتعبير عن الإقصاء والتهميش والمصادرة.

لا يوصف الجزائري من الداخل بصفته إنسانا يمتلك جوانية وحياة باطنية، بل يوصف من الخارج ليرى ضمن عالم الأشياء والماديات من خلا ل الصور المسطحة .

يخضع الجزائري في أغلب الأحيان لأسماء وألقاب وصفات تكون نمطية وجاهزة وثابتة. فالرجل يسمى دائما محمدا، والمرأة دوما فاطمة. أما صيغة الجمع فهي لا تخرج عن الأسماء المعهودة مثل: العرب، الأهالي، المسلمون. كما لا تطلق عليهم كلمة "الجزائريين" . وفي كثير من الأحيان تستعمل أسماء عنصرية تفيد السب والقذف والتجريح.

نحن هنا أمام صور جاهزة قابلة للاستعمال في كل الظروف والأحوال. أما الصفات فهي تحيل على السلبية والكسل والحيوانية.

ويتداول بشأن الجزائري كلمات موحية استعارها المستعمر من عصور الانحطاط للدلالة على وضعية تخلف مثل مكتوب، بركة، مرابط، سيدي، طالب، والتي تفيد الخنوع والخضوع والهروب من الواقع والاستسلام.

وقد احتضن تيار الرواية الاستعمارية روائيات فرنسيات عشن في الجزائر وقدمن رؤية معينة عن المرأة الجزائرية التي وصفت في كل تفاصيلها وجزئياتها. سعت هذه الروائيات إلى الإحاطة بسيكولوجية المرأة الجزائرية وذلك بالحديث عن شخصية المرأة المستعمرة وسيكولوجيتها وطباعها المتمثلة في: النرجسية، والكذب، والدهاء، والمكر، والخيانة، والكسل، والبحث عن الملذات...إلخ.

وهي صفات تتناقض تماما مع القيم الإيجابية التي أضفاها الرومانسيون على المرأة الجزائرية: الحب، الوفاء، التضحية، والسمو.

كما صورت الروائيات المرأة الجزائرية في مختلف الأمكنة التي تعيش فيها أو تتردد عليها: البيت، القصر، السوق، الطرقات، الريف، المدينة، الحمام، الحقول..الخ

وقدمن نماذج معينة عن هذه المرأة: الأم، الزوجة، الحبيبة، البغي، الراقصة، المنظفة، المعلمة، الأمية، البربرية، العربية، الولود، العاقر، السّافرة، المتحجبة، التقليدية، المتحضرة...إلخ.

وقد استغلت الروائيات الوضعية المزرية التي يعيشها الشعب الجزائري لنقد الأسرة الجزائرية والمناداة بتفكيكها ونسفها رغم أنها تمثل الحصن المنيع الذي يحمي المجتمع الجزائري من التلاشي والضياع. وقد بين "فرانتز فانون" في كتاباته كيف أن نموذج المرأة التقليدية في الأوضاع الاستعمارية يؤدي دورا ثوريا في الحفاظ على تماسك الجماعة ووحدتها في مواجهة قوى الاغتراب والاستلاب والتفكك.

في الثلاثينات من القرن الماضي، أخذ الشعب الجزائري يستفيق تدريجيا من سباته العميق ويتحرر من عالم الأسطورة ليندمج في الصيرورة التاريخية. وقد تم ذلك نتيجة انتشار المد الاشتراكي والوعي الطبقي واتساع رقعة الحركة الوطنية ورواج الأفكار القومية، وتغير موازين القوى على المستوى العالمي والإقليمي. وقد كان للزلزال الكبير الذي أحدثته الحرب العالمية دور كبير في خلخلة المعتقدات الاستعمارية وتفجير الأساطير الأدبية الاستعمارية التي وجدت نفسها بدون مرجعيات وبدون يقينيات. بدأ الضعف يتسلل إلى تيار "الجزائريين" في منتصف الثلاثينات، ليفسح المجال لتيار أدبي جديد بدأ يلوح في الأفق والذي سماه بعضهم بـ "مدرسة الجزائر"، والذي فرض هيمنته على الساحة الأدبية في الجزائر حتى نهاية الخمسينات. ويضم التوجه الأدبي الجديد مجموعة من الأدباء الذين ينحدرون من أصول أوروبية، وولد معظمهم في الجزائر من أمثال: جابريال أوديسيو، جول روا، إمانويل روبلس، رونيه جان كلوت،وجان بيليجري. ويتزعم هذه المدرسة الأديب العالمي الفائز بجائزة نوبل، ألبير كامو، الذي ولد بالجزائر من عائلة فقيرة وتشبع بأضوائها وبعبقرية المكان وخصوصية المرحلة التاريخية. وتجمع بين كل هؤلاء الأدباء روح الانتماء المتوسطي (الاعتزاز بالانتماء للحضارة اليونانية، التغني بالبحر والشمس والسماء والطبيعة الخلابة) وتحول الارتباط الإيديولوجي الحضاري من روما إلى أثينا، لإضفاء شرعية ثقافية وإنسانية وعالمية على المشروع الجديد الذي يدمج الجزائر في النسق الحضاري والتاريخي الأوروبي. وهكذا تلغى عبقرية المكان ويلغى العمق الجغرافي والحضاري العربي الإسلامي والإفريقي. والهدف من هذه الرؤية هو السمو بالإشكالية الاستعمارية لتصبح مقبولة ويتم تسويقها محليا وعالميا، وذلك بتوظيف عناصر الطبيعة والنزعة الإنسانية والأبعاد الميتافيزيقية والأسطورية والانتماء الكوني.

ويلاحظ أن الكتابة عند كامو تمزج بين كل المكونات، الشكلية والمضمونية، الأسطورية والعقلية، المحلية والعالمية، داخل نسيج إبداعي متماسك، واقتصاد دلالي موحد. فمثلا عندما نأخذ اسم الشخصية الرئيسية لرواية "الغريب" "مورسو"، فإننا نكتشف أنها تتكون من شقين: الشق الأول "مور" ويعني البحر، أما الشق

الثاني "سو" فهو يعني الشمس. ومعنى ذلك أنها محاولة للجمع بين البحر والشمس، بين الماء والنار، بين العمق والاتساع، بين السماء والأرض، وبين النور والظلمات، وما يترتب عن ذلك من خصوبة دلالية وآفاق فنية وفلسفية مفتوحة عن كل الاحتمالات.

وقد انتبه النقاد إلى أن "الغريب" يحيل إلى مستويات عديدة للغرابة: غربة الإنسان في الكون (غربة وجودية)، غربة الإنسان الغربي داخل الحضارة الغربية، غربة الكاتب "كامو" داخل وطن أجنبي شاءت الأقدار أن يولد فيه.

والعجيب في الأمر أن الجزائري مغيب في مسرحيات وروايات "كامو"، وهو إذا ظهر فلكي يموت، كما في رواية "الغريب"، وفي "الطاعون" لم يذكر إلا في جملة واحدة تتحدث عن الحالة الصحية للعرب. حتى الشمس نجدها تتحالف مع الأجنبي ضد الجزائري.

إن روايات "كامو" تعبر عن واقع الجزائر من وجهة نظر الفرنسيين رغم المسحة الإنسانية والطابع الميتافيزيقي.

التحق "كامو" بالمقاومة الفرنسية ضد النازية، قبل أن ينشط داخل اليسار الفرنسي، الذي تخلى عنه بعد مدة قصيرة، مما أثار غضب الفيلسوف "سارتر" الذي اتهم "كامو" بالسلبية والعدمية والعبثية وندد بموافقة الانهزامية. وقد كان "سارتر" وفيا إلى حد كبير لفلسفته التحررية والإنسانية مما جعله يقف مع الثورة الجزائرية بكل شجاعة وقوة، وهو القائل"إن الحرية كل لا يتجزأ.أنا لست حرا إذا لم يكن الآخرون أحرارا". أما "كامو" فقد تنكر لقيم الحرية والعدالة، كما يتجلى ذلك في كتاباته وتصريحاته ومواقفه.

وعندما استلم جائزة نوبل للأدب في استكهولم سنة 1958، قال قوله المشهورة: «سأدافع عن أمي قبل أن أدافع عن العدالة»، وهذا معناه أن دفاعه عن أمه فرنسا فوق كل اعتبار.

أثارت الرواية الاستعمارية الفرنسية رد فعل قوي لدى المثقفين الجزائريين الذين تخرجوا من المدارس الفرنسية وتشبعوا بقيم الثورة الفرنسية، لكنهم اصطدموا بجرائم فرنسا في الجزائر وخيانتها للقيم الإنسانية. لذلك أحسوا بالاغتراب المتولد عن المثاقفة وأبوا إلا مواجهة المغالطات وحملات التشويه التي مست الجزائريين في مقدساتهم وفي هويتهم.

أطاح الروائيون الجزائريون بالجدلية الاستعمارية. وعلى أنقاضها أسسوا لرؤية جديدة تحقق القتل الرمزي للمحتل وذلك بإقصائه من الكلام والفعالية التاريخية واللعبة الدرامية. وتجلى ذلك عند جيل الخمسينات الذي أسس لأدب جزائري مكتوب

بالفرنسية ولكنه حامل لثقافة جزائرية وروح جزائرية ومشروع حضاري جزائري. انتكست الرواية الاستعمارية باستقلال الجزائر وتهاوت كل الأساطير الأدبية والفكرية والفنية الاستعمارية. لأن ما بني على باطل فهو باطل. وقد بلغ الوعي القومي ببعض الأدباء الجزائريين إلى حد التخلي بصفة نهائية عن الكتابة بالفرنسية والدعوة إلى استعمال العربية وحدها في كل الإبداعات الأدبية والفنية والفكرية. ومواقف الأديب الراحل "مالك حداد" الذي تخلى عن الكتابة بالفرنسية معروفة في هذا المجال. لأن اللغة ليست أداة حيادية، بل هي لصيقة بالهوية والشخصية والحضارة. والكتابة بلغة الأجنبي تعني اليوم الخضوع للفرانكفونية والانسلاخ عن الذات والقيم الأصيلة. إنه الاغتراب في أبشع صوره. إن الحس الحضاري الذي يغذي المقاومة والصمود يستند أساسا إلى الهوية اللغوية وروح الانتماء والاعتزاز بالماضي والتاريخ والتطلع إلى إنجاز مشروع حضاري مستقبلي.

الهوامش:

1- أحمد منور: الجزائر في كتابات الأدباء الفرنسيين في القرن التاسع عشر، صدر عن وزارة الثقافة، بمناسبة الجزائر عاصمة الثقافة العربية، 2007.

2- لوران فليدر: الرواية الفرنسية المعاصرة، ترجمة فيصل الأحمر، منشورات مخبر الترجمة في الأدب واللسانيات، جامعة قسنطينة، 2004.

3- غسان زيادة: قراءة في الأدب والرواية.إنه نداء الجنوب، دار المنتخب العربي للدراسات والنشر والتوزيع، ط1، بيروت، 1995.

4- عبد الجبار الرفاعي: نحن والغرب. حول الصراع والتعايش، ط1، دار الهدى، بيروت، 2002.

5- حسين الضيقة: الآخر في منظور الفكر العربي الحديث، ط1، دار الفكر العربي، بيروت، 1994.

6- سعيد علوس: الرواية والإيديولوجيا في المغرب العربي، ط2، دار الكلمة للنشر، بيروت، 1981.

7- أحمد طالب الإبراهيمي: من الاستقلال إلى الثورة الثقافية، ط1، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1975.

8- محمد نور الدين أفاية، الهوية والاختلاف. في المرأة، الكتابة والهامش، إفريقيا الشرق، الدار البيضاء، 1988.

9- عبد الكبير الخطيبي: في الكتابة والتجربة، ترجمة محمد برادة، دار العودة، بيروت، 1980.

10- يوهان فوك: تاريخ حركة الاستشراق، ترجمة: عمر لطفي العالم، دار قتيبة، بيروت، 1996.

11- عبد المجيد حنون،: صورة الفرنسي في الرواية المغربية، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1986.

12- سعاد خضر: الأدب الجزائري المعاصر، المكتبة العصرية، بيروت، 1967.

13- واسيني لعرج: اتجاهات الرواية العربية الجزائرية، م.و.ك، الجزائر، 1986.

14- نور سليمان: الأدب الجزائري بين الرفض والتحرر، دار العلم للملايين، بيروت، 1981.

15-

1- *Déjeux, jean, La Littérature algérienne contemporaine*, Paris, PUF/ « Que sais-je ?", 1979.

2- *Gourdon, Hubert et al.* « Roman colonial et idéologie coloniale » , in *Revue algérienne des sciences juridiques, économiques et politiques, vol .XI, no4, 1974.*
3- *Khatibi, Abdelkébir, Amour bilingue, Paris, Fata Morgana, 1983.*
4- *Lucas Philippe et Vatin Jean- Claude, L'Algérie des anthropologues, Paris, Maspéro, 1975.*
5- *Messadi, Sakina, Les Romancières coloniales et la femme colonisée. Contribution à une étude de la littérature coloniale en Algérie. Alger, ENAL, 1990.*
6- *Moura, Jean-Marc, L'Image du Tiers Monde dans le roman français contemporain, Paris, PUF, 1992.*
7- *Said, Edouard, L'Orientalisme, Paris, Seuil, 1979.*
8- Taillart, Charles, L'Algérie dans les lettres françaises, Paris, Champion,, 1925